



د/ إبراهيم البحري

معالم السعادة وأثرها في بناء التوازن النفسي والاجتماعي من خلال...

Humanities and Educational
Sciences Journal

ISSN: 2617-5908 (print)



مجلة العلوم التربوية
والدراسات الإنسانية

ISSN: 2709-0302 (online)

معالم السعادة وأثرها في بناء التوازن النفسي
والاجتماعي من خلال سورة الفاتحة
دراسة تحليلية استنباطية(*)

د/ إبراهيم عبدالولي عبده البحري
أستاذ مساعد بقسم القرآن الكريم وعلومه
كلية التربية، بجامعة إقليم سبأ- اليمن
ebr714295265@jmail.com

تاريخ قبوله للنشر 16/11/2025

<http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index>

(*) تاريخ تسليم البحث 28/8/2025

(*) موقع المجلة:



معالم السعادة وأثرها في بناء التوازن النفسي والاجتماعي من خلال سورة الفاتحة دراسة تحليلية استنباطية

د/ إبراهيم عبد الولي عبده البحري
أستاذ مساعد بقسم القرآن الكريم وعلومه
كلية التربية، بجامعة إقليم سبأ - اليمن

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن معالم السعادة في سورة الفاتحة ودورها في بناء التوازن النفسي والاجتماعي، من خلال تحليل آيات السورة واستنباط دلالاتها المعرفية والسلوكية. وتوصلت إلى أن السورة ترسم منظومة متكاملة من المبادئ التي تحقق السعادة الحقيقية عبر توحيد الله، واستحضار رحمته، وبناء الإيجابية، والعبادة الشاملة، والعلاقات الصالحة، مما يبرز السبق القرآني في تناول قضايا الصحة النفسية والسعادة الإنسانية برؤية شمولية متوازنة.

الكلمات المفتاحية: سورة الفاتحة، السعادة، المعالم المعرفية، المعالم السلوكية.



Landmarks of Happiness and Their Role in Building Psychological and Social Balance A Study Through Surah Al-Fātiḥah

Dr. Ibrahim Abdulwali Abduh Al-Bahri

Assistant Professor, Department of Qur'anic Studies
College of Education, University of Saba Region - Yemen

Abstract

This study aims to explore the landmarks of happiness in Surah Al-Fātiḥah and their role in building psychological and social balance, through analyzing its verses and deriving their cognitive and behavioral implications. The study concludes that the Surah presents an integrated system of principles that lead to true happiness—through monotheism, awareness of divine mercy, the cultivation of positivity, comprehensive worship, and righteous relationships—highlighting the Qur'an's pioneering approach to addressing issues of mental health and human happiness with a holistic and balanced vision.

Keywords: Surah Al-Fātiḥah, happiness, cognitive landmarks, behavioral landmarks.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، أنزل الفرقان هدئاً ورحمة للمؤمنين، وجعل سورة الفاتحة أمّ الكتاب، ومفتاحاً للقرآن، فشرح بها صدور العارفين، وأثار بها عقول المتأملين، وجعلها منهجاً متكاملًا؛ لتحقيق السعادة للإنسان في دنياه وأخراه، وصلى الله، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، البشير النذير، والسراج المنير، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: في ظل التحديات النفسية والاجتماعية التي تواجه المجتمعات المعاصرة، تبرز الحاجة الملحة إلى استلهام المنظومة القرآنية في تحقيق السعادة، وبناء التوازن الداخلي، وتأتي سورة الفاتحة - بوصفها أمّ الكتاب - لتقدّم نموذجًا متكاملًا يجمع بين التوجيه المعرفي، والانضباط السلوكي، بما يحقق التكامل بين الفكر والعمل.

إن هذه السورة العظيمة التي تتكرر في صلوات المسلم اليومية، لا تقتصر أهميتها على بعدها التعبدي، بل تتعداه لتكون منهجًا حياتيًا ومعيارًا نفسيًا واجتماعيًا أصيلًا، ومنذ أربعة عشر قرنًا، قدّم القرآن الكريم من خلال الفاتحة مبادئ للسعادة والطمأنينة، لم تصل إليها المدارس النفسية، والاجتماعية الحديثة إلا في العقود الأخيرة. وانطلاقًا من ذلك، يأتي هذا البحث ليسلّط الضوء على معالم السعادة في سورة الفاتحة، وأثرها على الفرد والمجتمع، معتمداً المنهج الاستنباطي التحليلي، وذلك من خلال استقراء نصوص السورة، وتحليل معانيها، واستخراج الدلالات التي ترسم معالم التوازن النفسي، والاجتماعي.

وعليه، فإن هذه الدراسة تمثل محاولة علمية؛ لكشف الأبعاد القرآنية الأصيلة للسعادة الإنسانية، من خلال سورة الفاتحة، وإبراز سبق الوحي القرآني للعلوم الإنسانية الحديثة، في وضع الأسس الرصينة للتوازن النفسي، واستقرار المجتمع، إسهامًا في إثراء الدراسات القرآنية، وربطها بالقضايا الإنسانية المعاصرة. والله تعالى أسأل أن يهديني إلى الصراط المستقيم، وأن يمدني بعونه، ويجنبني فيما كتبت هنا، وفي غيره الزلل، وأن يحقق ما قصدته من القيام به، والله من وراء القصد، وهو حسي ونعم الوكيل.

مشكلة الدراسة:

كيف ترسم سورة الفاتحة من خلال مضامينها، ومعانيها، معالم السعادة الحقيقية، للفرد، والمجتمع؟

أسباب اختيار الموضوع:

- 1- حاجة العصر الملحة:** انتشار الاضطرابات النفسية والاجتماعية في المجتمعات المعاصرة، وغياب المعايير الثابتة للسعادة في الفلسفات الوضعية، مما يجعل العودة إلى المنهج القرآني ضرورة علمية وعملية.
- 2- مركزية سورة الفاتحة:** كونها السورة التي تتكرر في الصلاة يوميًا، وهي أول ما يُفتتح به المصحف الشريف، وتجمع في آياتها مقومات العقيدة، والعبادة، والسلوك، مما يجعلها أحق بالدراسة التحليلية لمعالم السعادة.
- 3- ندرة الدراسات المماثلة:** قلة البحوث الأكاديمية التي تناولت سورة الفاتحة من زاوية "معالم السعادة" وربطها بالأثر النفسي، والاجتماعي، خاصة بمنهج تحليلي استنباطي معاصر.
- 4- إمكانية التطبيق العملي:** وضوح معالم السعادة في السورة، وإمكانية صياغتها في برامج توعية، وإرشاد

نفسى، واجتماعي يمكن أن يستفيد منها الأفراد والمؤسسات.

أهمية الدراسة:

أهمية علمية:

- الاسهام في إثراء الدراسات القرآنية التطبيقية المعاصرة من خلال سورة الفاتحة، وربطها بالواقع المعاش، بما يبرز توجيهات القرآن الكريم في تحقيق السعادة الإنسانية في ضوء التحديات الراهنة.

أهمية عملية:

- إحياء البعد العملي لسورة الفاتحة في حياة المسلم اليومية.
- تقديم معالم مستمدّة من الوحي تحقق السعادة للفرد، وتقدم حلولاً واقعية لمشكلات العصر.

أهداف الدراسة:

- 1- إبراز التصور القرآني للسعادة من خلال سورة الفاتحة.
- 2- تحليل المعالم المعرفية والسلوكية الواردة في السورة.
- 3- بيان أثر هذه المعالم على التوازن النفسي والاجتماعي.
- 4- إثبات سبق الوحي القرآني للعلوم الإنسانية الحديثة، في وضع الأسس الرصينة للسعادة.

الدراسات السابقة:

لم يفرد الموضوع بدراسة مستقلة - في حدود اطلاع الباحث - وإن كانت هناك دراسات تناولت السعادة من منظور إسلامي؛ فإن هذه الدراسات لم تتناول ذلك في سورة الفاتحة، وأثرها على التوازن النفسي والمجتمعي، مما يبرز أصالة البحث، وفرادته في هذا المجال.

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج التحليلي الاستنباطي.

خطة الدراسة:

اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة:

المقدمة: بينت فيها مشكلة الدراسة، وأسباب الاختيار، والأهمية والأهداف، والدراسات السابقة، ومنهج الدراسة، وتمهيد: وفيه التعريف بمفردات العنوان.

- مفهوم معالم السعادة.

- سورة الفاتحة.

المبحث الأول: المعالم المعرفية.

المبحث الثاني: المعالم السلوكية.

التمهيد:

أولاً: مفهوم معالم السعادة:

معالم السعادة لفظ مركب من مصطلحين، فسيتم التعريف اللغوي بكل مصطلح على حده، ثم يتم التعريف بعد ذلك بـ: "معالم السعادة".

- معالم: جمع معْلَم، تقول: معالم الدين أي: دلائله، ومعالم المكان: ما يستدل به عليه من آثار ونحوها، ومعالم الطريق: العلامات التي تدل عليها⁽¹⁾.

- السعادة: في اللغة ضد الشقاوة، تقول: سعد الرجل من باب سلم، فهو سعيد، وهي معونة الله للإنسان على نيل الخير⁽²⁾.

وهي في الاصطلاح: الشعور أو الوصول لدرجة رضا الفرد عن حياته، أو جودة حياته⁽³⁾.

ومعالم السعادة عند الباحث: هي المؤشرات أو الركائز الأساسية التي تُرشد الإنسان إلى تحقيق السعادة الحقيقية الشاملة، حيث تغطي جوانب الفكر، والروح، والسلوك، وتستند إلى مبادئ، وقيم عليا ثابتة، تسهم في تحقيق الطمأنينة الداخلية، والتوازن النفسي، والاستقامة العملية، بما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع. وفي المنظور القرآني، تتمثل هذه المعالم في الأسس التي يضعها الوحي لهداية الإنسان إلى حياة طيبة في الدنيا ومثوية في الآخرة.

ومعالم السعادة في سورة الفاتحة: هي الركائز القرآنية الموجهة التي أرسنها السورة في سبع آيات جامعة؛ لتشكّل منهجاً متكاملًا لهداية الإنسان إلى الحياة الطيبة في الدنيا، والفوز في الآخرة.

وتتجسد هذه المعالم في محورين كبيرين: معالم معرفية: التوحيد، والإيمان بالرحمة الإلهية الشاملة، والنظرة الإيجابية، ومعالم سلوكية: الذكر والعبادة والعلاقات. ويمتاز هذا التصور القرآني بشموله للجانب المعرفي والسلوكي، وقدرته على تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية في آنٍ واحد.

وتتميز هذه المعالم بعدة خصائص:

1- ربانية المصدر: فجميعها نابعة من الوحي، ما يمنحها ثباتاً، وموثوقية، واستمرارية، ويجعلها بعيدة عن النقص، أو الانحراف الفكري.

2- الشمول والتكامل: فهي تغطي أبعاد الإنسان كلها؛ الروحية، العقلية، العاطفية، والاجتماعية.

3- القابلية للتطبيق: فليست مثالية، بل يمكن تحويلها من مبادئ نظرية إلى سلوكيات عملية تُعاش في الواقع.

4- الانسجام مع الفطرة: حيث تلي حاجات الروح، والجسد دون تعارض.

(1) جبهة اللغة للأزدي (984/2)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار (1544/2).

(2) مختار الصحاح للرازي (148)، والمعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين (430).

(3) انظر السلوك الإنساني لمنصور وآخرون (28).

ثانياً: وقفات بين يدي سورة الفاتحة:

سورة الفاتحة هي السورة الأولى في ترتيب المصحف بإجماع المسلمين، مكية النزول باتفاق الجمهور، لقول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: "الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"⁽¹⁾، والله تعالى يقول في سورة الحج: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وسورة الحج: مكية بالإجماع⁽²⁾، ولا خلاف في أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير الفاتحة⁽³⁾، وهي أول سورة نزلت كاملة⁽⁴⁾، وآياتها سبع مباركات باتفاق القراء والمفسرين⁽⁵⁾، وقد أفتتح بها القرآن الكريم، وجعلت مفتاحه، وتسمى "أم الكتاب" لاشتمالها على أصول مقاصده الكلية: الثناء على الله، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد⁽⁶⁾. وهي أعظم سور القرآن، لقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأبي سعيد بن المعلى -رضي الله عنه-: "لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"⁽⁷⁾، بل لم ينزل مثلها، قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لابي بن كعب -رضي الله عنه-: "كيف تقرأ في الصلاة؟" فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: "والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته"⁽⁸⁾. وقد أكثر المفسرون -رحمهم الله- في بيان فضلها وخصائصها، حتى لا يكاد يخلو كتاب تفسير قديم أو حديث من شيء من ذلك⁽⁹⁾، ولمكانتها العظمى اختارها الله تعالى كالمقدمة لكتابه العظيم، ففيها براعة استهلال له، وعنواناً لمواضيعه، كما جعلها مفتتحاً للتلاوة في كل صلاة، يرددها المسلم في ليله ونهاره سبع عشرة مرة في الفرائض فقط، ويرددها أكثر من هذا العدد، إن هو صلى الرواتب، وما شاء الله له من النوافل، يكررها في كل ركعة، وصلاته باطلة بغيرها، عند جماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم⁽¹⁰⁾، لقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة"

(1) صحيح البخاري برقم: (4474)، (17/6).

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (115/1).

(3) البرهان في علوم القرآن للسيوطي (207/١)، والتفسير الحديث للدرر عزت (17/1).

(4) التحرير والتنوير لابن عاشور (136/١).

(5) المرجع السابق (133/1)، وبطاقات التعريف بسور المصحف الشريف لنضيف (19).

(6) التحرير والتنوير لابن عاشور (136/1)..

(7) صحيح البخاري برقم: (4474)، (17/6).

(8) سنن الترمذي برقم: (2875)، (155/5)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (179/2).

(9) التفسير الحديث للدرر عزت (290/1).

(10) المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي (١٠٢/٤).

الكتاب⁽¹⁾، وقوله: "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفتحة الكتاب، فهي خِداج"⁽²⁾، أي ناقصة⁽³⁾. جمعت السورة في آياتها القليلة أصول العقائد وأمّهات العبادات، فافتتحت بالحمد والثناء، وقررت معاني الربوبية، وتضمنت الدعاء بأعظم مطلب وهو الهداية إلى الصراط المستقيم، والتحذير من طريق المغضوب عليهم والضالين. وفيها تلقينات جليلة: فالإله الذي يؤمن به المسلم هو رب جميع العالمين، وحُكْمه شامل ورحمته عامة، وهو مالك يوم الحساب، وعليهم أن يفرغوا أنفسهم وقلوبهم من غيره، فلا يخضعوها لأحد، ولا يبالوا في الحق أحدًا؛ لأنه هو الخالق والرازق، والنافع والضار، ومن شمل برحمته جميع الخلق، وهم مدينون له في حياتهم ومماتهم، وهدايتهم ورزقهم، وفي هذا ما فيه من إنقاذ المسلم، وتحريره من تأثير غيره فيه، وبث القوة والاعتماد والكرامة فيه⁽⁴⁾، فقد اشتملت على الشفاءين، شفاء القلوب، وشفاء الأبدان، ومن تحقّق بها عُوفي من أمراضه، وأسقامه، ورُقِل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وحُق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يُستشفى بها من كل مرض⁽⁵⁾.

وبعد بيان مفهوم معالم السعادة، ومكانة سورة الفاتحة، وما تضمنته من مقاصد كلية، يتبين أن هذه السورة قد أرست معالم شاملة لتحقيق سعادة الإنسان في أبعادها النظرية والعملية، ويمكن تقسيم هذه المعالم إلى قسمين رئيسيين: معالم معرفية، ومعالم سلوكية، وستعالج الدراسة أولاً المعالم المعرفية.

المبحث الأول: المعالم المعرفية:

العقل أداة المعرفة، يُطلق ويُراد به أمران: القوة التي يدرك بها الإنسان العلوم، والعلم الذي يستقيده الإنسان بتلك القوة⁽⁶⁾، وغني عن التأكيد عناية القرآن الكريم بالعقل، فالنصوص في ذلك كثيرة⁽⁷⁾، فقد اهتم القرآن الكريم عناية بالغة بالعقل، فحرره من الأوهام والخرافات والأساطير⁽⁸⁾، وخاطب الإنسان بقدراته العقلية يحثه على التأمل والتفكير، وينهى عن التقليد والإكراه، ذلك أن محور الهداية والانضباط في حياة الإنسان يقع في قدراته العقلية، التي ميزه الله بها على سائر المخلوقات، وبها خاطبه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، [البقرة: 44]⁽⁹⁾. وأن أي تحول في السلوك والاتجاهات فمدخله الطبيعي هو العقل، فهو الذي يوجه النشاط والحركة الإنسانية، وهو الذي يبني ويهدم،

(1) صحيح البخاري برقم: (٧٥٦)، (151/1).

(2) صحيح مسلم برقم: (395)، (297/1).

(3) مختار الصحاح للرازي (88).

(4) التفسير الحديث لدروزة عزت (295/1).

(5) مدارج السالكين لابن القيم (78/1).

(6) المفردات في غريب القرآن للراغب (577).

(7) ترددت مادة العقل في تسع وأربعين آية، انظر: العلم والعقل في القرآن الكريم للقرضاوي (13).

(8) في ظلال القرآن لسيد قطب (3737/6).

(9) علم النفس في القرآن لرياض (188).

ويؤلف ويفرق⁽¹⁾.

وإذا كان العقل سليم التصور، صحيح الاستدلال، عاش الإنسان حياة متوازنة، وإذا اضطرت موازينه، فكذب بالحق البين، أصيب بالتشويش، أو التقييد، وعاش في ضلال واضطراب، قال تعالى: ﴿بَانَ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾، [ق: 5]، أي في قلق من أمرهم، واضطراب، لا يستقرون منه على حال؛ لأنهم لم يتدبروا ما جاءهم من الحق الثابت، بل كذبوا به دون تدبر وتفكير⁽²⁾، وهكذا كل من كذب بالحق فإنه في أمر مختلط، لا يُدري له وجهة ولا قرار، فترى أموره متناقضة، كما أن من اتبع الحق وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله⁽³⁾.

ومن هنا فإن تحرير العقل من الأغلال الفكرية، وتخليصه من الأوهام والخرافات، شرط أساس للسعادة الحقيقية، وقد جاءت سورة الفاتحة -وهي أعظم سور القرآن- لتضع للعقل منهجًا يحرره من القيود التي تعوقه عن إدراك الحق، وتخلصه من التبعية العمياء، للأساطير والظنون، وتؤسس الإطار المعرفي السليم الذي يقود الفكر إلى اليقين والاستقامة، وقد رسخت سورة الفاتحة هذا المنهج المعرفي في العقل من خلال:

أولاً: التوحيد:

لقد جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات، والأساطير والفلسفات، والأوهام والأفكار، يختلط فيها الحق بالباطل، والدين بالخرافة؛ والضمير الإنساني تحت هذا الركام المهائم يتخبط في ظلمات وظنون، ولا يستقر منها على يقين؛ فجاء الإسلام بالتوحيد بأنواعه الثلاثة: الربوبية، الألوهية، والأسماء والصفات، كحقيقة كبرى بعد ان طمرتها الانحرافات التي طرأت على حياة الناس؛ وأوجب على المسلم أن يبيّن عقيدته عليه⁽⁴⁾، وجعله القرآن الكريم الحجر الأساس في بناء العقل، فهو الذي يجر الفكر من الخضوع لغير الله، ويخلصه من التعلق بالمخلوقين، ويجعله متوجهًا إلى الخالق وحده والقرآن الكريم مليء بآيات التوحيد، وقد قام أحد الباحثين بإحصائها فإذا هي قد وردت في أكثر من ألف وتسعمائة موضع⁽⁵⁾، بل إن كل آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي⁽⁶⁾، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في تحيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامه الله لأهل توحيد وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيد، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من

(1) العقل العربي وإعادة تشكيله للطريبي (78).

(2) تيسير التفسير للقطان (266/3).

(3) تفسير السعدي (803).

(4) الصحة النفسية من منظور إسلامي للصنيع (266).

(5) أدلة التوحيد النفسية والعقلية والعلمية للصباحي (10/1).

(6) وهذا تقسيم للتوحيد، فالتوحيد العلمي الخبري، أي توحيد الربوبية والأسماء والصفات، والإرادي الطلبي، توحيد الألوهية.

النكال، وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو خير عنمن خرج عن حكم التوحيد⁽¹⁾، وتشكل سورة الفاتحة منهجاً عقدياً متكاملًا يعد اللبنة الأساسية للسعادة النفسية، وذلك من خلال تصحيح التصورات، وربط الإنسان بخالقه، على أساس العلم واليقين، فجميع آياتها توحيد، حتى آخرها، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فهو توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، الذين فارقوا التوحيد⁽²⁾، وفيما يلي بيان شيء من ذلك.

افتتحت سورة الفاتحة بالتوحيد في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، مُثَبِّتَةً انفراد الله بالربوبية، الخلق، والملك، والتدبير، ومقررة أن النعم كلها منه، وأن تدبير الكون بيده وحده، وهذا الإقرار يضع العقل في حالة انسجام مع الحقيقة الكونية، ويغرس في العقل اليقين بأن الله هو المرجع والمصدر في كل شأن، فلا مجال للخرافة، أو الزعم الباطل في تفسير الحوادث، أو ربطها بغيره، وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل، في تصورات، ومشاعره، واتجاهاته، وموازينه، وقيمه في هذه الحياة جميعاً⁽³⁾، ثم جاء وصفه سبحانه بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ ليؤكد أن تدبيره للخلق قائم على الرحمة الشاملة، والرحمة الخاصة، فيوازن العقل بين الإيمان بعظمة القدرة الإلهية، والاطمئنان إلى حكمته وعدله، وهذا التوازن يمنح الفكر استقامة، والنفوس طمأنينة، تكسيها انشراحاً وسعادة، بخلاف الشرك فإنه لا سعادة معه ولا طمأنينة، قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: 29]، فهذا مثل ضربه الله للمشرك والموحد، كرجل مملوك لشركاء متنازعين، إن أرضى بعضهم أغضب بعضاً، فهو في حيرة واضطراب، ورجلاً خالصاً لرجل، وحده يملكه، ويعرف مراده، فهو في طمأنينة وهدوء بال، وراحة من تشاحن الخلطاء فيه، لا يستوي هذان الرجلان⁽⁴⁾، أما المؤمن الموحد فهو كما وعد الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]، قال ابن كثير: هذا وعد من الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت⁽⁵⁾، وأما المشرك فكما ضرب الله مثلاً: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَطَّهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]، وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله فيهوي من أفق الإيمان السامق، إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه، فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعرورة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا

(1) مدارج السالكين لابن القيم (418/3).

(2) انظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين لابن القيم (418/3).

(3) في ظلال القرآن لسيد قطب (2921/5).

(4) التحرير والتنوير لابن عاشور (177/1).

(5) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (601/4).

الوجود الذي يعيش فيه⁽¹⁾.

ثم جاء وصفه تعالى: ﴿مَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، أي يوم الجزاء؛ ليربط الحياة بيوم الجزاء؛ وليدل على صفة الملك المطلق، والسلطان التام يوم القيامة؛ لأنه ينبئ عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء، الذي هو أول أيام الخلود، فَمَلِكُ ذلك الزمان هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت ملكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي⁽²⁾، وربط الإنسان بيوم الحساب، بعيد الاتزان النفسي عبر الإيمان بالعدالة في مواجهة مظاهر الظلم الدنيوي، إذ يطمئن القلب إلى أن العدالة المطلقة ستتحقق، وهذا الإيمان يغلق منافذ الحقد والبأس، ويدفع إلى ضبط الانفعالات.

ثم تأتي الذروة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، حيث الدلالة على توحيد الله تعالى، فقد قدم المعمول ليفيد الحصر، في العبادة والاستعانة، كما أن فيها معنى النفي، أي: نخلع جميع المعبودات غير الله تعالى، في جميع أنواع العبادات، وفيها الإثبات: إفراد رب السماوات، والأرض، وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لا نطلب العون إلا منك وحدك؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك، لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة⁽³⁾، والحصر في العبادة والاستعانة، يحجر القلب من التعلقات الزائفة، كالمال والجاه، ويني اليقين بتفويض الأمر كله لله، مما يقطع أسباب القلق الوجودي⁽⁴⁾، ويبعث على قوة الإرادة، والشجاعة، وهذا الثنائي: (الإخلاص والتوكل)، يجعلان السعادة تنبع من اتصال العبد بربه، لا من ظروف خارجية وهما - كما يؤكد ابن تيمية - ينبوع الخير وأصله، بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم، أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب، من فاقة، وحاجة، ومخافة، وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب، ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك⁽⁵⁾، كما يؤكد النص أن القوة المعرفية لا تنفصل عن القوة العملية، وأن النجاح يتطلب الجمع بين الأخذ بالأسباب، والتوكل على الله، وهذا من شأنه يحمي الإنسان من الغرور، إذا حقق إنجازاً، ويقيه من الإحباط إذا واجه فشلاً، مما يضمن توازن الفكر واستقراره.

وهكذا يصبح التوحيد في سورة الفاتحة منهجاً معرفياً، يفتح للعبد باب الخير، والسرور، واللذة، والفرح، والابتهاج⁽⁶⁾، وينتج الطمأنينة، والسكينة، ويشكل حجر الزاوية للسعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، وبهذا يتضح سبق القرآن الكريم للدراسات العلمية النفسية الحديثة، التي توصلت إلى أثر العقيدة على السعادة، فقد أكدت نتائج دراسة روث آن فنك ذلك، فذكر أن 70% من أفراد عينته يؤكدون أن العقيدة الدينية منحتهم راحة العقل،

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب (4/2406).

(2) تفسير القرآن الكريم لابن القيم (457)، والمختصر في التفسير لنخبة من العلماء (461).

(3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (7/1).

(4) مفهوم في العلوم النفسية، يعرف على أنه: حالة من الضيق والقلق ينشأ من مواجهة الفرد لحقائق الوجود البشري كحريته وموته.

(5) مجموع الفتاوى لابن تيمية (10/659).

(6) كن فعالاً وإيجابياً لإيهاب كمال (238).

وأن 61% جعلتهم العقيدة يشعرون بالأمن والأمان، وأن 82% يتوجهون إلى الله عندما يكونون في ضيق، وأن 80% يؤكدون أن العقيدة تعينهم على أن يكونوا أشخاصاً أفضل، وأن 78% يشعرون بالأمان عندما يدركون أن الله معهم دائماً⁽¹⁾، ويوماً بعد يوم تزداد الإشارات والأدلة التي تشير إلى أن الإيمان بالله تعالى يقوي من صحة الفرد، ويساعده على الشفاء من الأمراض الحرجة ففي الكثير من الدراسات وجد أن من يتمتعون بقدر طيب من الإيمان تقل احتمالات تعرضهم للاكتئاب وأمراض القلب وانخفاض وارتفاع ضغط الدم، كما أن الإيمان يقوي الجهاز المناعي ويمنح المرء مقاومة ضد التوتر⁽²⁾.

ثانياً: الإيمان بالرحمة الإلهية الشاملة:

يمثل الإيمان بالرحمة الإلهية الشاملة ركيزة أصيلة في البناء المعرفي لسورة الفاتحة؛ فهي تفتتح باسمين جليلين لله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ فالرحمن بمعنى العظيم الرحمة؛ لأن فعلاً صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته، ويلزم منه الدوام كغضبان وسكران، والرحيم، أي ذو النعمة الواصلة الدائمة؛ لأن صيغته فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف، فكأنه قيل: "العظيم الرحمة الدائمة"⁽³⁾، وقد بدأت بهما؛ لاستغراقهما لكل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها، وليؤسس القرآن منذ البدء للعلاقة بين العبد وربّه على أساس الرحمة واللطف، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه، إنَّها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنفض بالمودة، وقد تكرر هذان الاسمان مرتين في السورة، في البسملة ثم في الآية الثانية، تأكيداً لمحورية الرحمة في العلاقة بين العبد وخالقه⁽⁴⁾.

ويتحقق التوازن النفسي الذي يمنح الإنسان إحساساً بالسعادة من إيمانه بأن الله رحمن رحيم، إذ ينبسط أمله في العفو إن زلَّ، ويقوى رجاؤه إن هفا⁽⁵⁾، فإن رحمته تمنح إهمال عبادته، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كماهم، فمن أعطى اسم "الرحمن" حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه علم إنزال الغيث، وإنبات الكلاء، وإخراج الحب، فافتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح؛ لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك⁽⁶⁾.

وتظهر هذه المعاني كذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالربوبية تتضمن الرعاية والتربية المستمرة للخلائق، وتدبير أمورها، ومبلغها غاية كماها⁽⁷⁾، وهذا من أبرز مظاهر رحمته سبحانه، كما يتجلى أثر هذه الرحمة

(1) الحاجة للإيمان وأثرها على الإيمان النفسي لسامية أبكر (104).

(2) الثقة بالنفس لعمرو (24).

(3) التفسير الوسيط لطنطاوي (16/1)، والمختصر في تفسير القرآن الكريم لنخبة من العلماء (1/1).

(4) في ظلال القرآن لسيد قطب (24/1).

(5) البحر المحيط لأبي حيان (35/1).

(6) التفسير القيم لابن القيم (12).

(7) التحرير والتنوير لابن عاشور (166/1).

في أسمى صورها عند قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، حيث أرشد الله عباده إلى طلبها، وهي أعظم رحمة يمنّ الله بها على عباده، فهي التي تنقذهم من الضلال، وتوصلهم إلى رضوانه، وجنته، ولولا رحمته لما هداهم إلى الخير، وجنهم الشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، أي ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من الخير ينعف به نفسه، ولم يتق شيئاً من الشر يدفعه عن نفسه⁽¹⁾.

ويبرز في هذا السياق الارتباط الوثيق بين الإيمان برحمة الله، وبين الاستعانة به، والتوكل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالعبد الذي يدرك سعة رحمة ربه بثق بكفايته، ويطمئن إلى وعده، ويعتمد عليه في شؤونه كلها، مستنداً إلى قوته، مفوضاً أمره إليه، مما يعزز الشعور بالأمن الروحي، والاستقرار النفسي، ويجلب الطمأنينة والسكينة، كما حصل للرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- حين كان يستتر من أعدائه في الغار، مع صاحبه الصديق -رضي الله عنه- في لحظة من لحظات المعاناة، وقد أحاطت به الدنيا، وأغلقت عليه المنافذ، ولكنه -عليه الصلاة والسلام- أجاب مهدتاً أبا بكر -رضي الله عنه- مطمئناً له⁽²⁾، كما أخبر الله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ باللطف، والنصر، والعون، والعصمة، والولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن⁽³⁾، ثم قال الله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. [التوبة: 40]، وفي الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما"⁽⁴⁾.

ثم تختم السورة بلمحة عقلية راقية تؤكد هذا المعنى، حيث يشير الله إلى نموذج بشري حيّ في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فهؤلاء الذين سلكوا الطريق المستقيم، نالوا من الله كل أسباب الراحة، والطمأنينة، والسكينة، وذلك برهان عقلي على أن رحمة الله ليست مجرد وعود غيبية، بل واقع مشهود في حياة عباده الصالحين، ليكونوا قدوة يُتخذى بها، ودليلاً عملياً على أن طريق الله هو طريق الرحمة، والسعادة الحقيقية، فإن النفوس تأس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به⁽⁵⁾. إن استحضار هذه الرحمة الإلهية، في الفكر والوجدان، يوئد لدى الفرد الطمأنينة النفسية، والأمل الدائم، والرضا بالقضاء، ويدفعه إلى الرحمة بالخلق، والإحسان إليهم، والتسامح معهم، مما ينعكس أثره إيجاباً على تماسك المجتمع، وتقوية روابط التكافل، ونشر قيم العفو واللين، لتتشكل بذلك بيئة مجتمعية أكثر أمناً وسعادة.

(1) جامع البيان للطبري (135/19).

(2) الأمن النفسي في القرآن الكريم لأفراح غرامة (177).

(3) الجواهر الحسان للتعالي (182/3)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (66/4).

(4) صحيح البخاري برقم: (4663)، (66/6)، وصحيح مسلم برقم: (2381) (1854/4).

(5) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (392).

ثالثاً: النظرة الإيجابية:

النظرة الإيجابية -من وجهة نظر الباحث- تعني: حسن الظن بالله تعالى، ونظرة استبشار نحو المستقبل، تجعل الفرد يتوقع الأفضل، ويرى الخير في كل حال، وبذل الجهد لنشره في النفس والمجتمع.

تشكل سورة الفاتحة نموذجاً تطبيقياً للإيجابية الفاعلة، فتغرس في نفس المؤمن روح الإيجابية التي تعد محرّكاً أساسياً للسعادة الفردية والجماعية، تبدأ ب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: اجعلوا حمدكم وشأنكم لي وحدي، لأني أنا رب العالمين، وأنا الذي تعهدتكم برعايتي، وعنايتي، وتربيتي، منذ تكوينكم من الطين، حتى استويتم عقلاء مفكرين، فكأنه سبحانه يقول: يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال الذاتي، والصفاتي، فاحمدوني فإني أنا الله، وإن كان للإحسان، والتربية، والانعام، فإني أنا رب العالمين، وإن كان للرجاء والطمع في المستقبل، فإني أنا الرحمن الرحيم، وإن كان للخوف، فإني أنا مالك يوم الدين⁽¹⁾، وحين يردد المسلم هذه الآيات، ويكررها في كل ركعة، فإنه بهذا يمارس أقوى تمارين "الامتنان النفسي"⁽²⁾، الذي يعيد تشكيل الوعي بالنعم واستحضارها، بدل الانشغال بالنقائص وتعدادها، إذ لا يحمد المرء ربه إلا بعد أن يعي كثرة عطائه، مما يُنمي لديه الامتنان، ويفتح باب التفاؤل في المزيد، وهذا من أقوى مولدات الطمأنينة والرضا النفسي، فالحمد ليس ألفاظاً تردد باللسان، ولكنها تمر أولاً على العقل؛ ليعي معنى النعم، ثم بعد ذلك تستقر في القلب، فينفع بها، وتنقل إلى الجوارح، فيقوم الحامد ليصلي لله شاكرًا ويهتز جسده كله، وتفيض الدمعة من عينه، وينتقل هذا الانفعال كله إلى من حوله⁽³⁾. وتتوالى الإيجابية في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، حيث يدرك العبد أن رحمة الله تحيط به في كل شأنه، فيعيش على أمل دائم، وتفاؤل متجدد، ويهدم ثقافة الإحباط والتشاؤم.

أما قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالعبادة مع كونها أعلى مراتب الخضوع، ولا تجوز إلا لله؛ لأنه معطي جميع النعم⁽⁴⁾؛ فهي ليست مجرد التزام نظري بالعبودية، بل إعلان عملي عن مبدأ: "ما نقوله نكونه"، أي أن أقوالنا تنعكس في أفعالنا، فإذا بالإيمان سلوكك، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: 71: 70]، أي: وقولوا السداد من القول؛ يوفقكم لصالح الأعمال⁽⁵⁾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، تنغرس الثقة المطلقة بالله كرافعة معنوية تشعر الإنسان أنه ليس وحيداً في مواجهة التحديات، بل معه معية الله ونصره، فيطلق طاقته في العمل، بدل إهدارها في القلق. وتتجلى أسمى صور الإيجابية في الدعاء للمجموع، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، إذ يخرج المؤمن من دائرة الأنا الضيقة، وينمي في نفسه عاطفة حب الغير، ويضعف فيه انفعالات الكراهية والبغضاء، والميل إلى حب الذات

(1) روح المعاني للألوسي (88/1).

(2) السر روندا بايرن (81: 73)، والامتنان النفسي: هو الاعتراف بالخير من مصدر خارجي، غير مشروط.

(3) تفسير الشعراوي (61/1).

(4) روح المعاني للألوسي (89/1).

(5) جامع البيان للطبري (335/20).

والأثره⁽¹⁾، فيشارك الآخرين هم الهداية والخير، ويصنع روابط التضامن الروحي، والاجتماعي، وعند قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، يعلن الرضا عن أهل الطاعة، والسير على خطاهم، بدل الحسد أو التنافر معهم، وهو موقف نفسي واجتماعي يوّلد -مع ما سبق- المودة ويبدد الأحقاد، والمسلم حين يقرأ الآية الكريمة فإنه يطلب من الله تعالى أن يكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، أي يسلك طريقهم، وكأنه يطلب الدرجة العالية في الجنة؛ لأن من ذكروا لهم مقام عال في الجنة⁽²⁾، ويختتم المسلم السورة بقوله: "أمين" وهي في جوهرها شحنة أمل "اللهم استجب"⁽³⁾ مما يرسخ التفاؤل بتحقيق الرجاء، ويشعره بأنه شريك في صناعة الخير القادم. وهكذا فإن الإيجابية في الفاتحة ليست شعورًا عابرًا، بل منهجًا معرفيًا، ووجدانيًا، يربط العبد بربه، وبالجمتمع على أساس الإيمان، والامتنان، والتفاؤل، والتضامن، والرضا؛ لثمر سعادة متوازنة تحيا في القلب وتنعكس في الواقع، باعتبار أن هذه هي المحركات الحقيقية للسلوك، والموجهات الفاعلة له، وهذا يؤكد سبق القرآني للدراسات النفسية الحديثة التي تشير إلى أن الأفراد المتفائلين (النظرة الإيجابية للحياة) مثلاً أقل قلقاً، وأكثر قدرة على تحمل الشدائد، كما أظهرت وجود علاقة إيجابية مرتفعة بين النظرة الإيجابية التفاؤلية والسعادة، وأن التفاؤل يرتبط إيجابيًا بالسيطرة على الضغوط ومواجهتها، وحل المشاكل بنجاح، والصحة الجسمية والنفسية، في حين أن المتشائمين يعانون من القلق والضيق النفسي⁽⁴⁾، كما أكدت الدراسات النفسية وجود علاقة طردية بين التفاؤل، والصحة النفسية، فكلما ارتفع منسوب التفاؤل؛ زاد من تحقق الصحة النفسية، والتي تعني الرضا والتوافق الدائم مع الذات، والبيئة المحيطة⁽⁵⁾.

أثر المعالم المعرفية على السعادة:

وهكذا تتكامل المعالم المعرفية الثلاثة المستخلصة من سورة الفاتحة - التوحيد، والإيمان بالرحمة الإلهية الشاملة والإيجابية، - لتشكّل منظومة معرفية متماسكة ترسم للإنسان منهجًا متكاملًا في النظر والعمل والشعور، فالتوحيد يحزّر الفكر من التبعية لغير الله ويثبت القلب على مرجعية واحدة مطلقة، والإيمان بالرحمة الإلهية يربط العبد بمصدر الأمان والسكينة ويغذّيه بالأمل والثقة في المستقبل، والنظرة الإيجابية تدفع إلى استثمار النعم، والنظر إلى الواقع بروح التفاؤل والعمل.

هذا التلازم يجعل السعادة في التصور القرآني ثمرةً لصفاء العقيدة، ووضوح الرؤية، وامتلاء القلب بالثقة والطمأنينة.

أولاً: أثرها على التوازن النفسي:

- التوحيد يمنح الإنسان شعور التوازن النفسي، لأنه يتعامل مع مرجع واحد قادر رحيم، فيزول عنه التششت

(1) القرآن وعلم النفس لنجاتي (279).

(2) انظر: تفسير الشعراوي (87/1).

(3) الوسيط في التفسير لطنطاوي (25/1).

(4) التفاؤل والتشاؤم عرض لدراسات عربية، مجلة علم النفس، العدد (56)، الهيئة المصرية للكتاب 2000م.

(5) التفاؤل في زمن الحرب وعلاقته بالصحة النفسية للمقدمي (169، 159).

والاضطراب.

- الإيمان بالرحمة الإلهية يورث الأمل حتى في أحلك الظروف، ويزيل الخوف من المستقبل، ويغرس الرضا بالقضاء، وهو أساس السكينة الداخلية، والتوازن النفسي.
- النظرة الإيجابية تولّد روح المبادرة والعمل، وتدفع نحو رؤية النعم والفرص بدل الانشغال بالعقبات، مما يزيد من الشعور بالرضا والسعادة.

ثانياً: أثرها على التوازن المجتمعي:

- التوحيد يوحد وجهة المجتمع نحو قيم الحق والخير، فيقوي الروابط الأخلاقية ويمنع التنافس القيمي.
 - الإيمان بالرحمة الإلهية يغرس قيم الرحمة والتعاطف والتكافل، فيحدّ من العنف والظلم، ويشيع جوّاً من التوازن الاجتماعي والأمن الطمأنينة الجماعية.
 - الإيجابية تنشر روح التفاؤل والبناء، وتشجع على التعاون في عمارة الأرض بدل الاستسلام للواقع السلبي.
- وبهذا تتكامل هذه المعالم لتصنع الإنسان السعيد في نفسه، المساهم في إسعاد غيره، وتبني مجتمعاً راشداً متراحماً مستقراً، وهو ما تمثله سورة الفاتحة كمدخل قرآني شامل للسعادة.

المبحث الثاني: المعالم السلوكية:

- السلوك، يُطلق ويراد به سيرة الإنسان، ومذهبه، واتجاهه، يقال فلان حسن السلوك، أو سيء السلوك⁽¹⁾.
- وهو في الاصطلاح: النشاط الكلي المركب الذي يقوم به الفرد، ومنه السوي، ومنه المحرف⁽²⁾.
- وإذا كانت المعرفة تمثل الأساس النظري الذي يقوم عليه إدراك الإنسان ووعيه، فإن السلوك يمثل الجانب العملي الذي يجسّد معتقدات الإنسان وقيمه، ويكشف عن حقيقة ما يحمله من معارف ومبادئ.
- فالمعرفة هي الأساس النظري للإدراك والوعي، أما السلوك فهو الثمرة الواقعية لهذا الوعي، والمظهر العملي لذلك الإيمان.
- ومن هنا لم ينزل القرآن الكريم ليقترن على تصحيح التصورات وإقامة البراهين، بل جاء ليقود السلوك ويهدّب حركة الإنسان في الحياة، بحيث تتكامل المعرفة والعمل، وتتلازم الإرادة والعقيدة، فيزول التناقض بين النظرية والتطبيق، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]، أي: فمن أراد لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، فهذه هي الوسيلة إلى لقاء الله؛ لأن العمل الصالح دليل على أنك احترمت أمر الأمر بالعمل، ووثقت من حكمته، ومن حبه لك، فارتاحت نفسك في ظل طاعته، فإذا بك إذا أويت إلى فراشك، تستعرض شريط أعمالك، فلا تجد إلا خيراً تسعد به نفسك، وينشرح له صدرك، ولا تتوجس شراً من أحد، ولا تخاف عاقبة أمر لا تحمد عقباه⁽³⁾، وقد أكّد علماء النفس أن العمل بما يحمله من حركة

(1) المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى وآخرون (445).

(2) السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس لمنصور وآخرون (28).

(3) تفسير الشعراوي (9014/15).

ونشاط يعالج الاضطرابات النفسية، ويعت على الثقة والراحة، فإذا كان ذلك في العمل الدنيوي؛ فإن العمل الصالح أرفع شأنًا وأسمى أثرًا لما فيه من اتصال روحي بالله تعالى (1).

ومن هنا يتبين أن السلوك المستقيم هو الشرط الأساس لتحقيق السعادة، وقد جاءت سورة الفاتحة - وهي أعظم سور القرآن - لترسم منهجًا سلوكيًا متكاملًا، يربط العبد بربه ويحرره من التبعية لغيره، ويهديه إلى الصراط المستقيم في علاقته بنفسه ومجتمعه. وقد تجلّى هذا المنهج من خلال:

المطلب الأول: الذكر:

يشكّل الذكر معلمًا أساسيًا في البناء السلوكي للسعادة، كما تصوره سورة الفاتحة، حيث تفتتح السورة بذكر من أعظم أنواع الذكر، وهو الثناء على الله تعالى بالحمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ليكون في ذلك إرشاد للعبد أن البداية الصحيحة للسعادة إنما تكون بتوجّه القلب إلى ربه بالحمد والتمجيد، والاعتراف بأنه وحده سبحانه مصدر النعم واصل الخيرات، وهذا الثناء الجامع يغرس في النفس مشاعر التعظيم والإجلال لرب العالمين، كما أن تكراره في كل ركعة من الصلاة يملأ القلب أنسًا بالله، ويحرره من أسر القلق والاضطراب، ليجد في محراب التمجيد أعظم منبع للسكينة والرضا، الذي يمثل المدخل الأساسي للسعادة الحقيقية.

ويأتي الحمد في أصله كشكر مقرون بالمحبة والتعظيم، وهو اعتراف صادق بفضل الله وإنعامه على عبده، إذ لا يكون الشكر إلا على إحسان المشكور - وهو الله - إلى الشاكر وهو العبد (2)، وهذا الشكر يورث النفس الرضا بالقضاء والقدر، ويزيل مرارة الشعور بالحرمان، ويجعل القلب عامرًا بالامتنان والسرور، فالعبد الشاكر ينظر إلى النعم بعين الرضا، بدل التركيز على النقائص، مما يجعله يحيا في حالة من القناعة والطمأنينة، التي تعد من أركان السعادة الحقيقية.

وتتجلى ذروة الذكر في قول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، الذي يمثل دعاءً جامعًا يعبر عن حاجة الإنسان الكبرى إلى الهداية، وهذا الدعاء يربط القلب بخالقه برباط الرجاء الدائم، الذي يغرس في النفس بذرة الأمل بمستقبل أفضل، ويخفف من ثقل الهموم، ويقطع دابر اليأس القاتل والقلق والاكتئاب (3)، فالمؤمن حين يرفع يديه بالدعاء يستشعر معية الله، فيزول قلقه ويستقر وجدانه، ليعيش مطمئنًا سعيدًا.

وهكذا يجمع الذكر في هذه السورة يجمع بين أبعاد متعددة: الثناء والتمجيد، والاعتراف والشكر، والدعاء والاستعانة، مما يجعله منهج حياة متكاملًا، وليس مجرد أفعال منفردة.

وفي عبده السلوكي يربي الذكر المؤمن على دوام الحضور القلبي مع الله، داخل الصلاة وخارجها، حيث جعل الله تلاوة الفاتحة ركنًا من أركان الصلاة، لا تصح بدونه، لتبقى حياة المسلم دائرة مع الذكر في ليله ونهاره.

(1) علم النفس العلاجي لسري (159). انظر الأمن النفسي في القرآن الكريم لأفراح (327).

(2) مجموع الفتاوى لابن تيمية (79/11).

(3) علم النفس في القرآن لرياض (195).

إن المداومة على ذكر الله بأنواعه تؤدي حتمًا إلى تزكية النفس وتطهيرها، وشعورها بالأمن والطمأنينة⁽¹⁾، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: 130]، ففي الآية أمر الله بالذكر وجعل ثمرته الرضا، وهو وحده جزاء حاضر يثبت من داخل النفس ويتزعرع في حنايا القلب⁽²⁾، والرضا هو أن يصل الإنسان فيما يحب إلى ما يؤمل، فالإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد، وحقق ما يرجو⁽³⁾.

وبذلك يصبح الذكر بمختلف أشكاله في السورة الكريمة، أحد أعظم المعالم السلوكية التي ترسمها سورة الفاتحة لطريق السعادة، فالإنسان يجد الطمأنينة والراحة بذكر الله تعالى، وهذه الطمأنينة هي أساس السعادة الإنسانية، بينما الغفلة عن الذكر تورث ضنكًا وحزنًا وضياغًا، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: 124]، أي في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدوره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة⁽⁴⁾.

ومن أجل ذلك كان الذكر معلمًا سلوكيًا جوهريًا، يحرر العبد من أسر الهموم والمخاوف، ويمنحه قوة روحية وعقلية، تجعله أكثر ثباتًا في مواجهة الابتلاءات والتحديات، وهو أيضًا سبيل رئيسي لتزكية النفس، يطهرها من الغفلة والهوى، ويغرس فيها نور الإيمان؛ لتكون أقرب إلى التوازن النفسي والسمو الروحي، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ لِصَبِيئِكُمْ صَدْرًا بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 98: 97]، أي: فالله يعلم أنه ليضيق صدرك بما يقولون عنك، وعن القرآن، وتحزن منه، فليهدأ روعك وليطمئن قلبك ولتسبح الله وتذكره وتسجد له وتعبد ما دمت حيًا، ففي ذلك سكينه للقلب، وطمأنينة للروح، وتهدئة للنفس⁽⁵⁾.

فالذكر مع كونه يهدي الحالة النفسية للإنسان، ويجلب لها الطمأنينة والسكينة؛ فإنه يعدّ من الأساليب الإسلامية الفعالة لمواجهة الضغوط النفسية⁽⁶⁾، وهو ما أكدته دراسة علمية قامت بها باحثة

(1) القرآن وعلم النفس لنجاتي (298).

(2) في ظلال القرآن لسيد قطب (2357/4).

(3) تفسير الشعراوي (9455/15).

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (322/5).

(5) التفسير الحديث لدروزة (60/4).

(6) ضغوط الحياة، كيف نواجهها للأفصري (296).

مصرية أجرتها على عينة كبيرة من طالبات الجامعة، ونشرتها الجمعية المصرية للدراسات النفسية، كورقة في المؤتمر السادس لعلم النفس⁽¹⁾.

المطلب الثاني: العبادة:

تمثل العبادة ركيزة أساسية من الركائز السلوكية التي تقوم عليها السعادة في سورة الفاتحة، وقد تجلّى هذا بوضوح حيث افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولفظ "الله" - وهو أعظم أسماء الله تعالى - الدال على ذات الإله سبحانه وتعالى، بمعنى: المعبود بحق، والدال - أيضاً - على كونه مألوهًا معبودًا، تأله الخلائق محبةً وتعظيمًا، خضوعًا وذلًا، وفرغًا إليه في الحوائج والنواب، كما أنه الاسم الدال على جميع الأسماء الحسنى التي ترجع إليه⁽²⁾. والعبادة في الاصطلاح الشرعي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي الغاية العظمى من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]⁽³⁾. وتأني الآية المحورية في السورة الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهي قلب السورة، وتمثل مركزها؛ إذ تجمع بين غاية الوجود الإنساني وهي العبادة، ووسيلته إليها وهي الاستعانة بالله، وهو المعنى الذي أكده ابن القيم بقوله: "وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾"⁽⁴⁾.

ولا ينحصر مفهوم العبادة في التصور القرآني عند مجرد الشعائر التعبدية فقط، بل يتسع ليشمل جميع مناحي حياة الإنسان: عقيدته، وعباداته، ومعاملاته، وأخلاقه، وجميع حركاته وسكناته، شريطة أن يكون القصد منها ابتغاء مرضاة الله تعالى، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، أي عبادتي، وما آتية في حياتي، وما أموت عليه من الإيمان، والعمل الصالح كله لله، أي: خالصًا لوجهه، وطلبًا لرضاه⁽⁵⁾.

وبهذا الشمول تشكّل العبادة منهجًا تربويًا هادفًا يحقق التوازن بين الجانبين الروحي والمادي في شخصية الإنسان؛ لينتج عن ذلك شخصية سوية تتمتع بصحة نفسية مستقرة، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123]، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ

(1) المرجع السابق (339).

(2) مدارج السالكين لابن القيم (77/1)، والمنهاج القويم من معين الحمد لله رب العالمين للعوضي (43).

(3) العبودية لابن تيمية (6).

(4) مدارج السالكين لابن القيم (95/1).

(5) التسهيل في علوم التنزيل لابن جزى (283/1)، وتفسير المراغي للمراغي (88/8).

أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلْنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [النحل: 97]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 277].

ولضمان أن تؤدي العبادة دورها التربوي في تحقيق التوازن والطمأنينة، فإنها تحتاج إلى منهج واضح يوجهها ويحفظها من الانحراف إلى الإفراط أو التفريط، وهذا المنهج هو الاستقامة على الصراط المستقيم، الذي يعني الاعتدال والمضي على النهج القويم دون انحراف، ومن هنا كان دعاء المؤمنين المتكرر في كل ركعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو دعاء في حاجة إلى اليقظة الدائمة، والتحرري الدائم لحدود الطريق، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً⁽¹⁾.

وعلى هذا، فإن العبادة الحققة لا تنفصل عن الاستقامة، بل تعد الاستقامة ثمرة لها وميزاناً لصدقها؛ فالمؤمن العابد يظل دائم التوجه إلى الله أن يثبتته على منهج الحق في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق. وبالتالي تمثل الاستقامة بهذا المعنى الامتداد العملي للعبادة، والضمانة لاستمرار السعادة التي وعد الله بها عباده المستقيمين، إذ لا نجاة من عذاب الحيرة والشك إلا بالاستقامة على العبادة، فمن استقام فقد سلم من الشك والاضطراب، واستراح من الحيرة العقلية والنفسية، حين انحلت عقدة الشك من نفسه، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته⁽²⁾، وتخلص من كثير من مصادر القلق والتوتر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، [الأحقاف: 13].

وبتمام تحقق هذه المعاني في قلب العبد علماً وعملاً، وحالاً وقصدًا، يبرأ من داء فساد القلب وانحراف القصد⁽³⁾ فتسكن نفسه إلى طمأنينة روحية، وتستريح نفسه إلى راحة قلبية، ويستقر أمره إلى انسجام داخلي بين دواخله ومظاهر سلوكه؛ إذ يتوجه بجميع أعماله إلى إله واحد لا شريك له. وهذا التوجه التام يحرره من كل أشكال العبودية لغير الله، سواء أكانت لشهوة طاغية، أو مصلحة آنية، أو هوى متبع.

وعلى المستوى الجمعي، حين تُصبح العبادة بمعناها الشامل هي السمة الغالبة على المجتمع، فإن ذلك يؤسس لبنية اجتماعية متماسكة، تُحكمها روابط الأخوة الإيمانية، وتسودها القيم الأخلاقية من الرحمة والعدل؛ وذلك أن العبادة الحققة تربي في النفس خلق العبودية لله وحده، وتستأصل من جذورها نزعات الاستكبار والطغيان والظلم بين العباد.

وعلى هذا، تنبؤ العبادة مكائنها كمعلم سلوكي أصيل من معالم السعادة التي أرسى قواعدها القرآن الكريم، فهي التي تمنح الحياة قيمتها ومعناها، وتضفي على الأعمال شرعيتها وقدريها، وتحدد للوجود الإنساني كله غايته ومآله.

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب (1931/4).

(2) ضغوط الحياة كيف نواجهها للأقصري (314).

(3) مدارج السالكين لابن القيم (76/1).

وبهذا يتضح أن العبادة كما صورتها سورة الفاتحة ليست مجرد تكليف شرعي يجتزه العبد أداءً جافاً، بل هي طريق السعادة الأقوم، ومنهج فلاحها الأسمى، فهي تحقق للإنسان سكينته النفس وطمأنينة القلب، من خلال تعلقه برب واحد، مستعيناً به في كل شؤون، وهي تُكسبه العزة الحقيقية والحرية من كل أسرٍ لغير خالقه، كما تغرس في نسيج المجتمع قيماً علياً من المساواة والعدل والتراحم. ومن ثم، فإن العبادة تُشكل الركيزة الأساسية في معالم السعادة السلوكية التي ترسمها سورة الفاتحة للإنسان، سواء في نطاقه الفردي الخاص، أو في إطاره الاجتماعي العام، وبهذا تكون سورة الفاتحة لها سبق لما أثبتته الدراسات النفسية، كدراسة عالم النفس الأمريكي هنري لينك، التي أثبتت أن العبادات من أهم الأعمال المؤثرة في صحة الفرد النفسية⁽¹⁾، وأن الأشخاص المتدينين والذين يترددون على دور العبادة، يتمتعون بشخصية أقوى وأفضل من لا دين لهم، أو لا يقومون بأي عبادة⁽²⁾.

المطلب الثالث: العلاقات الاجتماعية:

تجسُّ العلاقات الإنسانية في ختام سورة الفاتحة لترسم للإنسان خارطة السعادة في محيطه الاجتماعي والوجودي، مُكملةً بذلك البُعد الفردي الذي أرساه الذكر والعبادة، فكما أن سعادة القلب تكون بصلته بربه، ذكراً وعبادةً، فإن سعادة الحياة تكون بصلته بمجتمعه، وكونه على هدى وبصيرة، وتتجلى هذه الحكمة في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فهذه الآية العظيمة تُحدِّد للإنسان مساره الجماعي، وتُوجِّهه نحو العلاقات، مع القوى المهتدية، التي تؤمن بالله، وتتبع منهج الله، التي تُثمر أمناً وطمأنينةً، وتُحدِّد من تلك التي تورث ضلالاً وشقاءً، وهي العلاقة مع القوى الضالة التي لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه⁽³⁾.

فأول معالم السعادة في العلاقات هو الارتباط بالصلحين، والافتدائ بالمينعم عليهم، وهم عند المفسرين: كل من ثبته الله تعالى على الإيمان والطاعة من التَّيِّبِينَ والصديقين والشهداء والصلحين⁽⁴⁾، كما فسرتها آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّيِّبِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]⁽⁵⁾، فهذه الصلحة تورث القلب سعادة الاقتداء، وتغرس فيه معاني الطهر والإيمان، وتُشعره بأنس الجماعة المؤمنة التي تسنده وتعينه، فتعكس على نفسه طمأنينةً وسكينةً، لأنه يعلم أنه ليس وحيداً في رحلته، بل هو جزء من قافلة الخير التي تسير على نور من ربها، وتلك من أعظم أسباب السكينة النفسية والروحية.

(1) الصحة النفسية من منظور إسلامي للصنيع (388).

(2) القرآن والأمن النفسي للرومي (5).

(3) في ظلال القرآن لسيد قطب (25/1).

(4) التفسير المظهري للمظهري (9/1).

(5) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (8/1).

وفي المقابل، يحدّر القرآن من علاقات الشقاء والضلال، ممثلة في المغضوب عليهم والضالين، فأصحاب هذه المسالك يمثلون تياراً معاكساً للسعادة، يصرف القلب عن الحق، ويظلم النفس بالشك والحيرة، ويضيّق عليها بضلاله، فيفقدونها أنسها وطمأنيتها، فمجرد الصحبة معهم قد تكون سبباً في تعاسة النفس وضنك العيش، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ [الفرقان: 27-28]، فالسعيد هو من يختار رفقة الخير، والشقي من يختار رفقة الضلال.

ولعل في صيغة الدعاء الجماعية ﴿اهْدِنَا﴾ ما يزيد هذا المعنى وضوحاً، فالسعادة لا تُنال بفرديّة متعالية، بل باندماج في جماعة مؤمنة، يكون فيها التعاون والتآلف والمودة، هذه الجماعة هي البيئة الخصبة التي تنمو فيها مشاعر الأمن والانتماء، والتي تُعدّ من أركان السعادة الإنسانية، فالإنسان فيها يشعر بأنه جزء من كل، يُساند ويُساند، يُحِبُّ ويُحِبُّ، يعين على الخير ويُعينه الخير، وهذا الإحساس بالجماعة يطرد عن النفس وحشة الوحدة، ويزيل عنها غبار الهم والقلق.

ولأجل هذا، كان الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم أعظم الدعاء، فهو مفتاح كل خير وسعادة، وحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده، وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية، وكذلك النصر إذا قُدّر أنه غلب حتى قُتل فإنه يموت شهيداً، وكان القتل من تمام النعمة، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق؛ بل لا نسبة بينهما؛ لأنه إذا هدي كان من المتقين، وقد قال الله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 3: 2]⁽¹⁾، فهي - أي الهداية - توصل العبد إلى نعيم شامل، ليس مقصوراً على الحياة الآخرة فحسب، بل يشمل نعيم الدنيا والآخرة جميعاً، كما صرحت بذلك آيات كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]، قال ابن كثير: "هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بأن يحياه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت"⁽²⁾، وهي جزاء الدنيا العاجل لأهل الصراط، وهي تحقيق للسعادة والطمأنينة والرضا.

وفي مقابل ذلك، فإن الوعيد للمغضوب عليهم، والضالين، وهم اليهود والنصارى⁽³⁾ كما فسرها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليس مقصوراً على العذاب الأخروي، بل يشمل ضنك المعيشة، والشقاء النفسي في الدنيا قبل الآخرة⁽⁴⁾، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: 124]، فهذا

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (39/14).

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (601/4).

(3) جامع البيان للطبري (195/1: 185)، ومسند أحمد برقم: (19181)، (123/32).

(4) التفسير القيم لابن القيم (376)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (331/16).

الوعد والوعيد، يعززان السعادة النفسية حاضرًا للمهتمدين، ويملآن القلب ثقة وطمأنينة في العاقبة، فيعلم العبد أن سعيه في بناء علاقاته على التقوى لن يضيع، بل سيجد ثمرته حاضرة في دنياه قبل آخره، في أمنه وسكينته واستقراره.

وهكذا، تكون العلاقات السليمة - كما رسمتها الفاتحة - جسرًا يعبر عليه الإنسان إلى سعادة الدارين، فهي تمنحه سعادة الصحبة الصالحة، وسعادة الانتماء إلى الجماعة، وسعادة الألفة مع الكون، وسعادة الثقة بوعد الله له بالنصر والتمكين، فكما أن الذكر يصل القلب بربه، فإن العلاقات الصالحة تصل القلب بمجمعه وكونه، فتكتمل له أسباب السعادة من جميع جوانبها، والفاتحة بهذا تسبق الدراسات النفسية الحديثة التي أثبتت أن العلاقات الاجتماعية من أهم عوامل الصحة النفسية، بل لا يمكن القول بأن فلانًا من أهل الصحة النفسية؛ إلا إذا كان التفاعل عنده ذاتيًا، معتمدًا على المبادرة الإيجابية، التي يجب أن تظهر في سلوكه مع الآخرين، وهم دوائر متعددة، فمنهم السابقون، الذي يكون تعامله معهم بحسن الاتباع، واتخاذهم أسوة حسنة، وأما المعاصرون، فيستفيد من الصالح منهم، ويسعى إلى منفعة ونصح من خرج عن الصراط المستقيم، وذلك بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن⁽¹⁾.

أثر المعالم السلوكية على السعادة:

تمثل المعالم السلوكية المستخلصة من سورة الفاتحة -المتتملة في الذكر، والعبادة، والعلاقات- الجانب التطبيقي الذي تُترجم به المضامين المعرفية إلى واقع ملموس في حياة الفرد والمجتمع، لتُحقق سعادةً شاملةً تنبع من داخل النفس وتنتشر في محيط المجتمع.

أولاً: أثرها على التوازن الفردي:

- الذكر: يورث القلب الطمأنينة والسكينة، ويجرّه من القلق، ويغرس فيه الرضا والامتنان.
- العبادة: تُنظم حياة الفرد وتُطهر قلبه، وتُجدد صلته بالله، مما يمنحه استقرارًا نفسيًا ومعنى وجوديًا.
- العلاقات: تمنح الفرد شعورًا بالانتماء والدعم الاجتماعي، وتُزيل عنه وحشة العزلة، وتُشعره بالأمان النفسي.

ثانيًا: أثرها على التوازن المجتمعي:

- الذكر: يشيع لغة الشكر والتفاؤل، ويردع عن الفحشاء، مما يُحقق أجواءً من الأمن والاستقرار المجتمعي.
- العبادة: تُعزز مبدأ المساواة والتضامن في الجماعة، وتُذيب الفوارق، فتبني مجتمعًا متماسكًا.
- العلاقات: تبني روابط قائمة على الخير والتكافل، وتُضعف نفوذ الانحراف، فتصنع بيئة اجتماعية مترابطة ونظيفة وآمنة ومستقرة.

وبهذا تتكامل هذه المعالم لتصنع الإنسان السعيد في نفسه، المساهم في إسعاد غيره، وتبني مجتمعًا راشدًا مترابطًا مستقرًا، وهو ما تمثله سورة الفاتحة كمدخل قرآني شامل للسعادة.

(1) الصحة النفسية من منظور إسلامي للصنيع (401).

الخاتمة وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

أولاً: النتائج:

- 1- سورة الفاتحة تحتوي على منظومة متكاملة من المعالم المعرفية والسلوكية، التي تؤسس لتحقيق السعادة الحقيقية للفرد والمجتمع.
- 2- المعالم المعرفية (التوحيد، الإيمان بالرحمة الإلهية، النظرة الإيجابية) تُحرر العقل والقلب من القلق والاضطراب، وتُعزز الطمأنينة واليقين.
- 3- المعالم السلوكية (الذكر، العبادة، العلاقات الاجتماعية) تُترجم المضامين المعرفية إلى واقع عملي، مما يُحقق الاستقرار النفسي والروحي.
- 4- سورة الفاتحة تمثل سبباً قرآنياً للعلوم الإنسانية النفسية الحديثة، في وضع المعالم الأساسية للسعادة.
- 5- التكامل بين الجانبين النظري والعملي في السورة يجعلها منهجاً متكاملًا لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.
- 6- قلة الدراسات السابقة التي تناولت سورة الفاتحة من زاوية السعادة النفسية والاجتماعية، مما يُبرز أهمية هذه الدراسة وأصالتها.
- 7- يختلف مفهوم السعادة في الرؤية القرآنية عن الطرح الغربي المادي؛ إذ يقوم -الأول- على التوازن بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة، مما يمنحه شمولية وعمقاً لا تتوفر في النظريات الوضعية.

ثانياً: التوصيات:

- 1- تفعيل الدور التربوي والدعوي لسورة الفاتحة في البرامج التعليمية والدينية، وربطها بحياة المسلم اليومية.
- 2- اعتماد منهج استنباطي تحليلي في دراسة النصوص القرآنية الأخرى لاكتشاف مضامينها النفسية والاجتماعية.
- 3- تصميم برامج إرشادية ونفسية مستمدة من معاني سورة الفاتحة، خاصة في مجال العلاج النفسي والتربوي، مثل: علاج القلق، وتقديم الاستشارات الأسرية، وتعزيز الصبر في مواجهة الأزمات.
- 4- تشجيع الباحثين على دراسة السور القرآنية الأخرى من منظور السعادة والصحة النفسية.
- 5- نشر ثقافة الامتنان والتفاؤل والإيجابية التي تُعززها السورة، عبر وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي.
- 6- عقد ندوات وورش عمل لتوعية الأفراد والمؤسسات بأثر سورة الفاتحة في تحقيق السعادة الفردية والجماعية.
- 7- الاهتمام بالدراسات المقارنة بين الرؤية القرآنية للسعادة والنظريات النفسية الحديثة لإثراء المعرفة الإنسانية وتأكيد تميز المنهج القرآني.
- 8- ترجمة الدراسة إلى لغات أخرى؛ لنشر الرؤية القرآنية عالمياً.
- 9- إجراء دراسات ميدانية؛ لقياس أثر تطبيق هذه المعالم على عينات مختلفة (كبار، شباب، مراهقين، مرضى نفسيين).

المراجع:

القرآن الكريم

أبكر، سميرة حسن، الحاجة للإيمان وأثرها على الأمن النفسي، رسالة مقدمة لنيل الماجستير من كلية البنات جدة عام 1403هـ.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط/1، 1410 هـ.

ابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم، العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط/7، 1426هـ - 2005م.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، 1995م (1416هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط/3.

ابن جزى، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط/1، 1416 هـ.

ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت.

ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث - القاهرة، ط/1، 1416هـ-1995م.

ابن حيان، محمد بن يوسف بن علي، البحر المحیط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ط/1420 هـ.

ابن عاشور، محمد الطاهر، 1984م، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن قيم، محمد بن أبي بكر، 1996م (1416هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/3.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، 1999م (1419هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط/1.

ابن منظور، محمد بن مكرم، 1994م (1414هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط/3.

أبو السعود، محمد بن محمد، 982هـ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث-بيروت. الأزدي، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط/1، 1987م.

الألوسي، محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط/1، 1415 هـ.

بايرن، رواندا، السر، مكتبة جرير، ط/1، 2008م.

- الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط/2، 1395هـ-1975م.
- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط/1 - 1418هـ.
- الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط/5، 1420هـ/1999م.
- الراغب، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ت: صفوان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط/1، 1412هـ.
- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، القرآن والأمن النفسي، بحث مقدم للملتقى العلمي الرابع للهيئة العالمية للحفاظ القرآن، الكويت، 2007م.
- رياض، سعد، علم النفس في القرآن الكريم، مؤسسة اقرأ، 2004م.
- سري، إجلال محمد، علم النفس العلاجي، عالم الكتب، ط/1، 2000م.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/1.
- منصور، عبد المجيد سيد وآخرون، السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 2002م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1394هـ/1974م.
- الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي - الخواطر، مطابع أخبار اليوم.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، 1415هـ-1995م.
- الصباحي، رشيد منصور محمد، أدلة التوحيد النفسية والعقلية والعلمية، دار الإيمان مصر، ط/1، 2016م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، 2002م (٤٢٢هـ)، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط/1.
- الصنيع، صالح بن إبراهيم، الصحة النفسية من منظور إسلامي، دار الهدى النبوي، ط/1، 225م.
- الطبري، محمد بن جرير، 2000م (٤٢٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/1.
- الطبري، عبد الرحمن، 1995م، العقل العربي وإعادة تشكيله، كتاب الأمة القطرية، العدد (35).
- طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نضرة مصر، ط/1.

- عزت، دروزة محمد، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ط/ 1383هـ.
عمرو، محمد ياسر، الثقة بالنفس، دار النفائس، ط/1.
العوضي، سامح بن عيد، المنهاج القويم من معين الحمد لله رب العالمين، مكتبة الطبري، ط/2014م.
غرامة، أفرح حسن عبد الله، الأمن النفسي في القرآن الكريم، الأهدل للطباعة، 2012م.
القرضاوي، يوسف، 1995م (1416هـ)، العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، ط/1.
القرضاوي، يوسف، الإيمان والحياة، مكتبة وهبة، ط/6، 1978م.
القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط/2، 1384هـ-1964م.
القطان، إبراهيم، تيسير التفسير، بدون معلومات، على الشاملة.
قطب، سيد، 1991م (1412هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت - القاهرة، ط/17.
كمال، إيهاب، كن فعالاً وإيجابياً، دار الحرم للتراث، ط/1، 2013م.
مختار، أحمد، 2008م (1429هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط/1.
مركز دراسات للدراسات القرآنية، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ط/3، 1436هـ.
مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة.
المظهري، محمد ثناء الله، التفسير المظهري، تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية - باكستان، ط/1412هـ.
نجاتي، محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، ط/7، 2001م.
نصيف، محمد عبد العزيز، بطاقات التعريف بسور المصحف الشريف، دار الملتزم، ط/1، 2019م.
النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
المقدمي، نبيل حسن صالح، التفاؤل في زمن الحرب وعلاقته بالصحة النفسية لدى طلاب كلية التربية بجامعة إقليم سبأ، المجلة العلمية لجامعة إقليم سبأ، المجلد (3)، العدد: (1)، 2022م.